صحائف من تاريخنا القومي

قاسم أمين ـ الرجل

للأستاذ أحمد خاكي

اشتهر قاسم أمين بدفاعه عن المرأة لأن ذلك كان أوضح ما كتب عنه ، لكنه عندنا من أكبر المصلحين المصريين الذين ظهروا في أوائل هذا القرن . وليس دفاعه عن المرأة إلا شعبة من آرائه في الحرية والتربية واللغة وسائر وجهات الإصلاح . ولو أنك تصفحت كلماته قبل أن تقرأ كتابيه في « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » للمحت عقلية جديدة نفذت وراء الحجب التي تكاثفت على عقول المصريين خلال قرون طويلة ، ورأيت كيف تستطيع النفس الحساسة أن تندسّ إلى ما وراء الحجب فتلقى الحقيقة سافرة غير مقنعة ، ثم لشاقك من حياة هذا الرجل أنه كان شجاعاً ، ولاتخذت من حياته مثلاً أعلى للتفاني دفاعاً عن الفكرة

ظهر في أعقاب القرن الماضي قليل من أمثال قاسم أمين ، لكنهم لم يلقوا ما لقي هو من المنت والسخرية والاستهزاء . كان يعيش أكثر أضرابه في أجوائهم ، لكن قاسماً كان يعيش في جو خاص به هو نفسه . وذلك ما استعدى عليه المتعصبين من أصحاب الدين وأنصاف المتعلمين من أصحاب العلم ؛ وقليل أولئك الذين قدروا تلك النفس الحساسة التي تؤمن بالحرية إيمانهم بنعيم الحياة . وكثير أحسوا مثل إحساسه بما كانت ترسف فيه المرأة المصرية من أغلال ، لكن أحداً من هؤلاء لم يؤتَ من شجاعة النفس ما استطاع أن يصمد به للمهاترين والمغالين ممن أعمتهم التقاليد

على أنه ليس يعنينا اليوم في حديثنا عنه وجوه الإصلاح التي نبه إليها وتحدث فيها وإنما يعنينا أن نرى قاسم أمين الرجل وأن نتعمق في درس تلك النفس الزكية التي أوتيت كثيراً من الغضب الكريم . وأشهد لقد هممت بالكتابة عن النقاش الذي دار بينه وبين الدوق داركور ، لكنما رأيت أن الكلام في ذلك سوف يصبح ناقصاً لا غناء فيه ما لم أتحدث عن قاسم أمين « الرجل » لأن قاسم أمين « الرجل » هو الذي غضب للقومية المصرية ، وهو الذي غضب للإسلام والمسلمين ؛ وهو بعد ذلك الذي دافع عن مصر والإسلام بحرارة المجاهد الرشيد

وأول ما يمتاز به قاسم أمين « الرجل » نفس محسّة تجيش بمختلف العواطف ، فهو قد أوتي الكمال من الحس الدقيق والشعور المرهف ، وهو من أول المصريين الذين اعترفوا بأن النفس جماع لمختلف العواطف والمشاعر والوجدانات إلى غير ذلك مما يتصل بالدراسات النفسية الحديثة . ولعله أحد المصلحين القلائل الذين اهتدوا إلى تلك النتائج قبل أن يتعمق الناس في دراسة علم النفس . فهو يعترف بأن الانسان مجموعة من الأعصاب تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها ، وأن القلب الذي يكنّ البغض هو نفسه الذي يكنّ الحب ، وأن النفس الشريرة تنمو — إذا نمت — لأنها تصادف جواً صالحاً يؤثر فيها

وقد كان شديداً على البيئة التي نشأ فيها قاسم أمين أن تؤمن بما جاء به ، كان شديداً عليها أن تعنو للنتائج القيمة التي وصل إليها لأنها كانت بيئة نصف متعلمة ونصف متدينة في وقت معاً ، أما العلم الذي تشبثت به فقد كان خليطاً من القشور والخطل ، وأما وجهتها الدينية فقد كانت ملتوية تمتاز بالنفاق والجدل . لذلك لم يعترف أنصاف المتعلمين بالغرائز التي تندفع في نفس الإنسان ، ولم يحاول أنصاف المتعلمين أن يتبصروا فيما انحدر إليهم من أصول القرآن والسنة . ولو أن أولئك وهؤلاء قد اجتمعوا على أن يذوقوا ما ذهبت إليه تلك النفس الحساسة لرأوا رأياً آخر غير الذي بسطوا فيه أقلامهم وألسنتهم عن جهالة

على أن تلك النفس الحساسة التي اعترفت بالخير والشر جميعاً هي النفس التي أعانت صاحبها على أن يستوعب الآثار الدقيقة التي مارسها في حياته . هو قد اعترف بالغرائز الدنيا وقد اعترف بالعواطف العليا ، وهو قد رأى الشر إلى جانب الخير ، فكان في كل ذلك يمثل المعلم المتبصر الرشيد ، ولن يكون الزعيم ولا المعلم حتى ولا القاضي أهلاً لما يرجى منه حتى يرى النفس الانسانية من ناحيتيها وحتى يقدر الشر والخير والرذيلة والفضيلة ، وحتى يعترف بالشر والرذيلة ويتفحص هذه وذلك ليترسم السبيل السوية نحو الخير والفضيلة وكل ما ينطويان عليه من معان

تلك النظرة الدارسة هي التي أقامت عند قاسم أمين كل المعايير التي حاول أن يطبقها على المجتمع المصري ، ولأنه كان يؤمن بأن النفس جماع العواطف والوجدانات فقد قال : « إن الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان في جميع أدوار حياته . فتارة يخضع للأولى وتارة تتغلب عليه الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ في التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يوماً بأفضل الأعمال

« وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنده ، إنما هي في تحليل وتركيب . في تكوين مستمر يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده إلى التماسك »

بل هو قد استطاع أن يقيم معياراً صحيحاً يقيس به رغبات الرجال ونزعاتهم . ولسنا ندري هل كان يتنبأ بكشوف علم النفس الحديث حين قال : « إن الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً . وإنما تختلف شهواته باختلاف سنه : فشهوة اللعب عند الطفل ، وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين . وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا»

وقد كان قاضياً، على أنه كان ينظر إلى نفس المجرم نظرة دارسة أخرى . كان يرى أن المجرم مسير أكثر مما يكون مخيراً ، وأنه « لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن الخطيئة — العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة »

« هل المخطئ مسئول أو غير مسئول ؟ وما هي درجة مسئوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها . لكن حلها يكاد يكون محالاً ، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجهيها الأدبي والمادي ، والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الإرادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا . وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنه إن لم يكن مسئولاً عن الحيوان المفترس مباشرة ، فهو مشابه له في شره وأطماعه وشهواته . خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم . خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً مؤقتاً »

« فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه . هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان . هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما النساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة ... من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً إلى الفضيلة ... »

« وأخيراً ، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يائسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت »

وإذا أنت نثرت بين يديك كل ما قيل عن تنازع الغرائز ، وإذا أنت نشدت فكرة تأخذ بمجامع الغرض الأسمى للتربية ، لم تجد تصويراً أدق مما ترسمه قاسم أمين في تلك الكلمات . كل كلمة تنضح من ينبوع من الحكمة والحق والحب ، وكل فقرة تجهك بحقيقة من الحقائق التي يعيها رجال التربية ويعلمون مداها في تربية العقل والوجدان في العصر الحاضر . وإنما النفس الحساسة التي تفيض رحمة وحنانا هي التي شعرت بكل ذلك . وقاسم أمين القاضي هو الذي آمن ذلك الإيمان . أليس القاضي هو الذي يستطيع أن يبلغ بإحساسه إلى مستسر النفس ويتعمق بشعوره إلى أطوائها ؟ إلا أنه كان قاضياً فذاً ذلك الذي استطاع أن يوفق بين العدل وبين العفو . فهو يشعر بنواحي الضعف البشري كما يشعر بها شاعر مثل شكسبير ثم لا يمنعه ذلك من أن تجري أحكامه بقسطاس مستقيم

* * *

قاسم أمين المربي وقاسم أمين القاضي هو الذي شعر بكل ذلك؛ لكن قاسم أمين المتفنن الأديب هو الذي استطاع أن يؤلف بين العفو وبين العدل وأن يداول بين المثل الأعلى وبين الفطرة الدنيا . والمتفننون في العالم هم أولئك الذين ألفوا بين المتناقضات وجمعوا الأبيض والأسود في صعيد واحد يفرقون بين هذا وذاك بما يوحى إليهم من الحكمة وبما يُلهمون من شعر أو حديث أو تصوير . ولولا أن المتفننين القدامى والمحدثين قد اعترفوا بالرذيلة والخطيئة والشر لما ورث العالم ذلك الفن الذي رقّه على الإنسان حياته . وقد أوتي قاسم أمين نفس المتفنن الأديب وهي التي ألهمته

أن يردحياة المجتمع فى عصره إلى عناصرها الأولى فاستطاع أن يفرق بين الحق وبين الباطل واستطاع أن يدافع عن الأصول التى اهتدى إليها فى حرارة الأدباء والمتفننين

ولسنا ندرى: أإذا أتيح لقاسم أمين أن يكتب فى الأدب التمثيلى أكان يكتب من المسرحيات ما يشا كل تلك النفس الفنانة التى ترددت بين جنبيه ؟ لكن قاسماً كان فيما يكتب يستروح نفحة نقية من الأدب ، ويتهدّى بشعور عميق من الفن . إلا أنه لأمر ما لم يتجه إلى الأدب المسرحى ، أو قل إنه أوتى الكثير من عدة الفن لكنه لم يتهيأ لإنتاج الفن نفسه . وإنما قوام الفن تلك الحساسية البريئة التى تستطيع أن تشفق على المجرم وأن ترى الغرائز الدنيا مصطخبة مع الأفكار العليا . إنها نفس حساسة تلك التى تستجيب لكل الآثار التى تلقاها ، وهى هى نفس المتفنن الأديب. وأى الرجال كان شكسبير، وأى الرجال إبسن أو برناردشو إذا هم لم يمتازوا بتلك النفس الحساسة التى تستجيب لكل الدواعى ؟ وعندنا أن قاسم أمين كان أحد الذين انفعلوا لآثار البيئة التى عاشوا فيها ، ثم أعطوا بعد ذلك أضعاف ما أخذوا . وهو يشبه فى ذلك جمهرة الروائيين الذين صوروا الحياة كما كانت وكما ينبغى أن تكون . ولو أنه أوتى حظاً من التأليف الروائى لخرجت من بين يديه مسرحيات تطاول ما ألفه الآخرون. وحسبه أن كلماته التى لم تبلغ الستين صفحة لم تزل معرضاً لنواح كثيرة من حياة الجيل السالف : معرضاً أحسن تصويره أى إحسان .

ولعلنا نطيل كثيراً إذا حاولنا أن نتاثر ما صوره قاسم أمين من حياتنا المصرية ، فهو فى مرة يصف حياة خمسة من الشيوخ أحيلوا إلى المعاش وقضوا أوقات فراغهم فى لعب الطاولة وفى مناقشات بريئة صاخبة عن البين . قضى الموت على أربعة منهم « وبقى خامسهم منفردا كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيته لا يدرى ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذى يخلصه منها . » وهو يكتب فى مرة عن متطفل اقتحم بيت أحد أصدقائه وفيه قوم يسمرون فأفسد سمرهم . وهو فى كل ما يصف شاعر بالجذل الذى يملك نفس الروائى ، وهو يقول فى ذلك : « يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة ، وسماع القصص المضحكة أو المبكية . والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجانا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ، ولا مهارة الممثلين » .

* * *

وشىء آخر شارك قاسم أمين فيه أهل الفن والأدب ، ذلك هو الشعور بالجمال . فلقد كان خياله سخيا لدنا ، اتسع لألوان كثيرة من الجمال . وقد حاول أن يسبغه على غرائز الفطرة الأولى التى اعترف بها . فهو إذا اعترف بأن الإنسان يولد شريراً فقد ذهب إلى أن الغريزة قد يستعلى بها إلى المكان الأسمى . وهو فى ذلك يختلف عن كل معاصريه الذين ثاروا به . ولأن هؤلاء لم يدركوا ذلك الأساس الأول من أسس التربية والإصلاح فقد ظل قاسم أمين عرضة لسوء الظن، وظلت كلماته غرضا لسوء التأويل؛ وهو قد كان يؤمن بأن « أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم » وبأن « الذوق السليم هو الإحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام »

وكأنما قد ألهمت تلك النفس الحساسة حب الجمال إلهاماً ، وكأنما تشرفت على ما تندفع به نفس الإنسان من عواطف نبيلة ، كما اطلعت على ما يتدفق فى أغوارها من غرائز وشهوات . والحق أن باحثاً يدرك الشر لا بد أن يرى ناحية الخير ناصعة بريئة . وقد داول هو البحث بين الخير والشر فأقام حدوداً جمالية نرى أن مصر لم تأخذ بالكثير منها . فهو قد كان يرى أن « أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى ، وأن هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فإهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور »

وهو يقص عليك القصة التالية لتدرك تقديره للجمال ، ولترى فى أية بيئة كان يعيش :

« دخلنا قصر اللوفر ، وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم ، فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلاً : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا منتظركم هنا . وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا